الموقف الإيراني من الحملة ضد قطر

نبيل عودة *

ملخص: تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على الموقف الإيراني من الحملة الخليجية-المصرية ضد قطر، في ضوء أن علاقة قطر مع إيران كانت أحد الأسباب التي قدمتها السعودية مسوِّغًا لقطع العلاقة مع قطر، وتفصّل الورقة في سياقات الأزمة والسلوك الإيراني تجاهها، وبخاصة أنها جاءت عقب هجوم الرئيس الأمريكي دونالد ترامب على إيران في قمة الرياض التي سبقت الأزمة مع قطر، ويرى الباحث أن إيران حاولت استثمار الأزمة من عدة نواح دبلوماسية واقتصادية، كما أنها حاولت الاستفادة من الشرخ في العلاقات الخليجية-الخليجية لمصلحتها، وأن الدول الأربع التي اشتركت في الحصار تسهم من خلال سياستها في هذه الأزمة في تمكين إيران من تحقيق أهدافها في المنطقة.

* باحث، الأردن

The Iranian Position towards the Campaign against Qatar

NABIL AUDAH*

ABSTRACT This study sheds light on the Iranian position on the Gulf-Egyptian campaign against Qatar. given that Qatar's relationship with Iran was one of the reasons presented by Saudi Arabia to sever relations with Qatar. The paper details the contexts of the crisis and its reflections on the Iranian behavior; especially. that it came after the attack by US President Donald Trump on Iran at the Riyadh summit which took place just before the eruption of the crisis with Qatar. The author believes that Iran has acted to exploit the crisis in several diplomatic and economic aspects and to take advantage of the rift in inter-GCC relations. Via their hostile policy in the crisis. the four countries. participating in the embargo against Qatar. enable Iran to achieve its objectives in the region.

* Researcher. Jordan

رؤية تركية
2017 - (6/3)
133 - 121

منذ اندلاع الأزمة الخليجية مؤخرًا، التي تمثلت بحملة المقاطعة الشاملة لدول محور الحصار الأربع: (السعودية والإمارات والبحرين ومصر) ضد قطر لم تغب إيران عن واجهة الأحداث، فقد كانت العلاقة مع إيران واحدة من الأسباب الرئيسة التي ساقتها الدول الأربع في دعواها لشن هجومها الكبير ضد قطر؛ إذ اتهمت هذه الدول مجتمعة أمير دولة قطر الشيخ تميم بن حمد آل ثاني من خلال ما نُسِب إليه من تصريحات مفبركة بمحاباة إيران على حساب جهودها الرامية إلى تشكيل موقف عربي موحد ضد (الإرهاب) بشقيه السني والشيعي. ولم يتوقف الأمر عند ذلك، فقد كان خفض التمثيل الدبلوماسي مع إيران، والاقتصار على التعاون التجاري معها بما لا يخل بالعقوبات المفروضة على طهران" أحد الشروط الثلاثة عشر التي فرضتها دول محور الحصار على قطر في سبيل إنهاء الأزمة وفك الحصار عنها. وفي حين غاب ذكر إيران صراحة في المبادئ الستة –وهي الصيغة المعدلة لقائمة الشروط الثلاثة عشر– التي أفرج عنها في وقت لاحق، إلا أنه من المستبعد أن تتوارى إيران كليًّا عن الأزمة، خصوصًا في ظل الصيغة العامة والملتبسة التي صيغت بها هذه المبادئ؛ وجاءت على شكل مكافحة الإرهاب والتطرف، وقطع التمويل عن الجماعات الإرهابية، وعدم توفير ملاذات آمنة لها، ووقف التحريض على الكراهية والعنف والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى[1]، وهي تُهَم من السهل أن تُلصَق بإيران.

تُعَدّ الأزمة الخليجية ضد قطر شديدة الصلة بإيران وسياساتها في المنطقة، وذلك بالنظر إلى السياقات التي جاءت من خلالها، كما أن موقف طهران يشير إلى حدّ كبير إلى الاتجاهات التي ستسلكها هذه الأزمة، وعلى انعكاساتها، سواء على خريطة الديناميكيات الأمنية والسياسية في المنطقة أم على مكانة إيران الإقليمية. وتتناول هذه الورقة بالتحليل هذه السياقات، والموقف الإيراني من الأزمة، وانعكاساتها على مكانة إيران المستقبلية.

سياقات الأزمة... والمأزق الإيراني المحتمل

كانت إيران تشعر بالقلق من افتعال الأزمة، بالنظر إلى السياقات التي جاءت بها؛ وذلك في ظل تصاعد الحديث في الآونة الأخيرة عن إعادة رسم خريطة التحالفات الإقليمية بحضور أمريكي مكثف، ومتزامنًا أيضا مع إعادة تعريف الإرهاب؛ ليشمل دائرة أوسع تضمنت مكافحة (التطرف الإسلامي) بأشكاله كافة. فمنذ تولي الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مقاليد السلطة أصبح الحديث عن تشكيل تحالف أمريكي– عربي لمكافحة الإرهاب يأخذ زخمًا تصاعديًّا بلغ ذروته مع الزيارة التاريخية للرئيس ترامب إلى الشرق الأوسط، ومشاركته في القمة الإسلامية –الأمريكية في الرياض في مايو/ أيار 2017، حيث كانت إيران جنبًا إلى جنب مع تنظيم الدولة الإسلامية هما محور التهديد الذي يجب العمل عليه عربيًّا وأمريكيًّا للتصدّي له، ومجابهته، ووضع حدّ لتمدّده.

وقد هاجم الرئيس ترامب في كلمته في أثناء قمة الرياض إيران بشكل كبير، حيث وردت على لسانه إحدى عشرة مرة – في حين ورد تنظيم الدولة سبع مرات فقط– وعدّها الدولة المسؤولة عن إشاعة حالة من عدم الاستقرار في المنطقة، والدولة المضطلعة بتقديم الدعم المادي، والمأوى الآمن، والحاضنة الاجتماعية للإرهابيين. وقد أخذ موقف الرئيس ترامب يتضح أكثر في تصريحاته في أثناء زيارته لإسرائيل، وهي المحطة الثانية في جولته الخارجية بعد السعودية، حيث بيّن صراحة أن هناك أرضية مشتركة بين العرب وبين إسرائيل يمكن البناء عليها لتشكيل تحالف واسع من أجل الوصول إلى سلام دائم، والتصدي لنفوذ إيران في المنطقة، ولخطر تنظيم الدولة[2].

بالنسبة لإيران، أعاد الحديث عن التقارب العربي الإسرائيلي برعاية أمريكية إلى الأذهان عملية السلام التي انطلقت في مدريد بداية تسعينيات القرن العشرين، التي استُبعدت منها إيران بشكل كامل؛ حيث عُدّت خطوة الاستبعاد تلك في حينها بداية لإستراتيجة أمريكية–إسرائيلية هدفت إلى عزل إيران عن محيطها الإقليمي من أجل فتح المجال أمام إسرائيل لفرض رؤيتها الإقليمية المتمثلة بتشكيل شرق أوسط كبير تكون فيه إسرائيل القطب الاقتصادي الأوحد، بحيث تتحول تدريجيًّا إلى نموذج اقتصادي على شاكلة نموذج هونغ كونغ في آسيا. كانت إسرائيل تسعى من خلال الاقتصاد أن تسيطر على ما لم تستطع آلتها العسكرية السيطرة عليه حينها، ولتحقيق هذا الهدف الطموح كان لابد أن يتم استبعاد إيران وعزلها من أجل تحويل الثقل التجاري من موانئ الخليج إلى موانئ إسرائيل على البحر الأبيض المتوسط.

غير أن هذه المرة لم يكن الحديث مقتصرًا على عزل إيران فقط، بل كان صار الحديث حول مواجهتها، والتصدي لنفوذها المتنامي في المنطقة، لا من أجل جلب منافع اقتصادية لإسرائيل فحسب بل من أجل إعادة رسم المشهد الأمني والسياسي للمنطقة كلها، وهو ما يخلق مأزقًا حقيقيًّا لإيران، ويعمل على إثارة مخاوفها بشكل أكبر بكثير مما كانت عليه في السابق،

أعاد الحديث عن التقارب العربي الإسرائيلي برعاية أمريكية إلى الأذهان عملية السلام التي انطلقت في مدريد بداية تسعينيات القرن العشرين التي استُبعِدت منها إيران بشكل كامل حيث عُدّت خطوة الاستبعاد تلك في حينها بداية لإستراتيجية أمريكية- إسرائيلية هدفت إلى عزل إيران عن محيطها الإقليمي

خصوصًا إذا أخذنا في الحسبان بعض المستجدات المهمة التي لم تكن في الماضي. ويتعلق أول هذه المستجدات بالإدارة الأمريكية الحالية التي تصنف على أنها شديدة العداء لإيران ولنفوذها في المنطقة. فقد دأب الرئيس الأمريكي -منذ أن كان مرشّحا للرئاسة- على مهاجمة إيران، وانتقاد السياسة المرنة التي انتهجها سلفه الرئيس أوباما في التعاطي معها؛ معتبرًا أن الاتفاق النووي الذي تُوصِّل إليه بين إيران ومجموعة 5+1 هو الأسوأ على الإطلاق، واعدًا بتمزيقه، وإعادة التفاوض عليه. ليس هذا فحسب، فإدارة الرئيس ترامب تتكون من مجموعة من الجنرالات النافذين الذين يتمتعون بنزعة تحريضية ومواقف متشددة ضد إيران. فوزير الدفاع الأمريكي جيمس متيس لا يخفي امتعاضه من سياسة إيران المزعزعة للاستقرار في المنطقة، فقد صرح في زيارة له إلى إسرائيل أن المشكلات الثلاث الأكثر إلحاحًا بالنسبة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط هي: "إيران وإيران ومن ثم إيران"[3]، أما مستشار الأمن القومي الأمريكي الجنرال ماك ماستر فكان أكثر دقة في انتقاده الحاد لسياسة إيران عندما اتهمها بمحاولة إشاعة نموذج (حزب الله) من خلال دعم مليشيات محلية تعمل على تقويض الحكومات، وذلك من أجل تحويل دول المنطقة إلى دول فاشلة؛ ليسهل بعد ذلك على إيران السيطرة عليها[4].

وبالرغم من أن الإدارة الأمريكية لم تبلور إلى الآن إستراتيجية واضحة في كيفية التصدي للنفوذ الإيراني في المنطقة، إلا أن بعض الإجراءات التي اتُّخِذت مؤخّرًا على الأرض تظهر تصميمًا أمريكيًّا على وضع حدّ لتمدّد إيران الإقليمي. فقد تصدّت المقاتلات الأمريكية عدة مرات -على سبيل المثال- لمليشيات مسلحة مدعومة إيرانيًّا عندما حاولت التقدم إلى منطقة التنف في جنوب شرق سوريا، وهي المنطقة التي تحوي قاعدة عسكرية توجد فيها قوات أمريكية وبريطانية وأردنية مشتركة. وتهدف الولايات المتحدة تحديدًا من خلال المحافظة على هذه المنطقة الإستراتيجية الواقعة على المثلث الحدودي بين سوريا والعراق والأردن بشكل يخلو من القوات المدعومة إيرانيًّا- إلى قطع الطريق الدولي الواصل بين بغداد ودمشق، وذلك من أجل حرمان إيران من أحد أهم الطرق التي من خلالها قد تستطيع إيران إنشاء جسر بري يصل أراضيها بالضفاف الشرقية للبحر الأبيض المتوسط؛ وهو الحلم الذي طالما سعت إيران إلى تحقيقه عبر تاريخها الطويل.

وعلى صعيد متصل، فرضت الإدارة الأمريكية مؤخرًا مزيدًا من العقوبات الاقتصادية على ستة عشر كيانًا وفردًا إيرانيًّا على اتصال مباشر بالحرس الثوري الإيراني. وقد جاءت العقوبات الأخيرة في سياق تشديد الإجراءات على إيران من أجل الحدّ مما أسمته الولايات

المتحدة (التأثير الخبيث) لإيران في الشرق الأوسط. هذا وقد أكّد وزير الخزانة الأمريكي ستيفن منوشين حرص بلاده على استهداف إيران بشكل قوي على خلفية دعمها للإرهاب، وتطوير برنامجها للصواريخ البالستية، وانتهاكاتها الصارخة لحقوق الإنسان[5]. ومما يجدر ذكره هنا أن هذه العقوبات تأتي بُعَيد أيام من التقرير الدوري الذي تقدمه وزارة الخارجية الأمريكية إلى الكونغرس، الذي أكّد أن إيران لا تزال تفي بتعهداتها حسبما يقتضيه الاتفاق النووي، وهذا يؤشر إلى أن إدارة ترامب معنية في عدم اعتبار الاتفاق النووي عقبة في وجه إجراءاتها التصعيدية ضد إيران.

أما المستجد الثاني فيتعلق بصيغة التحالفات العربية- العربية في المنطقة، فقد أظهرت التحركات الأخيرة أن بنية مغايرة من التحالفات بدأت بالظهور، فهناك على سبيل المثال تغيّب مقصود للهياكل (فوق- دولة) كالجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي عن المشهد، في حين يحدث تقارب بين السعودية ومصر، وهما من أغنى وأكبر البلدان العربية. ولا شك أن التقارب بين السعودية ومصر كان على الدوام يشكّل مصدر قلق لإيران، خصوصًا إن لم يكن العدو المشترك لهما إسرائيل، كما كان في السابق إبان حرب أكتوبر، بل هو طهران. ومما يثير القلق من هذا التقارب أيضًا أنه لا يحدث بين نظامين متكافئين، بل يأخذ التقارب شكل الإملاءات، فمصر وهي الدولة الإقليمية الكبرى تظهر بشكل التابع لإملاءات كل من السعودية والإمارات، وإذا أخذنا بعين الاعتبار حالة العداء المتأصلة بين الرياض وبين طهران يمكن تصور مقدار توجس الإيرانيين من هكذا نوع من التقارب المصري- السعودي، خصوصًا في ظل تصريحات الرجل الأقوى الآن في السعودية؛ ولي العهد الأمير محمد بن سلمان، التي توعد فيها بنقل المعركة إلى الداخل الإيراني[6]. وقد عدّت إيران- على سبيل المثال - أن الهجمات التي تعرضت لها في عقر دارها واستهدفت كلًّا من مبنى البرلمان، وضريح الإمام الخميني في حزيران/ يونيو 2017 الترجمة المباشرة لهذه التهديدات، حيث اتهمت طهران كلًّا من السعودية وأمريكا بالوقوف خلف هذا الهجوم الذي أسفر عن مقتل ما يقرب من 12 شخصًا، بالرغم من أن تنظيم الدولة هو الذي أعلن مسؤوليته عنه بشكل صريح[7].

كما أن طبيعة السياسات التي تتمخض عن التحالف الرباعي الجديد بين السعودية والإمارات والبحرين ومصر تثير قلق دول الجوار، فقد تبنى هذا التحالف سياسة خارجية نشطة تتسم بالعدوانية والتدخلية، فمن جانب خاضت السعودية مع حلفائها حربًا -يبدو أنها ستطول- في اليمن، في حين تتدخل الإمارات ومصر بشكل سافر في الشأن الداخلي الليبي، وتقود الدول الأربع حملة حصار شاملة على قطر، تهدف في الأساس إلى المساس باستقلالها وسيادتها على قرارها السياسي في خطوة تتنافى مع المبادئ الأساسية للقانون الدولي التي تنص على وجوب الاحترام المتبادل لسيادة الدول بعضها لبعض، وعدم التدخل في شؤونها الداخلية. وبالنظر إلى أن هذه الدول الأربع هي من الحلفاء التقليديين للولايات المتحدة

فـإن حالـة الالتباس والغموض وعـدم التجانس في السياسـية الخارجية للرئيـس ترامب تثير القلـق، وترفـع من حالة عدم الاسـتقرار الإقليمي. فقد بـدأت الحملة على قطـر بُعَيد مغادرة الرئيـس ترامب المنطقة، كـما أن تغريداته اللاحقة على موقع التواصـل الاجتماعي تويتر والتي حملـت دلالات مباركتـه للحملة قد زادت من تعقيد المشـهد، وأعـادت للأذهان التصريحات الملتبسـة للسـفيرة الأمريكية في العراق قبيل الغـزو العراقي للكويـت في 1990، وهو ما دفع الكثـير مـن المراقبين للحديث عـن غزو جديد تقوم به هذه المرة كل من السـعودية والإمارات ضـد قطـر. وبالرغم من أن البعض بدا متشـككًا من كون تغريدات الرئيـس تعبّر عن الموقف الرسـمي للولايات المتحدة من الأزمة[8]، إلا أنها تكشـف عن حقيقة مثيرة للجدل، حول مدى الاخـتراق الـذي حققته كل مـن الإمارات والسـعودية للدائرة الضيقة من المستشـارين حول الرئيس ترامب، الذين يحاولون بدورهم الاضطلاع بإعادة تشكيل السياسة الأمريكية للشرق الأوسـط بحيث تأخذ بعين الاعتبار المواقف السـعودية والإماراتية مـن قضايا المنطقة[9]. وبناء عـلى ذلك يبقى هناك تسـاؤل كبير حول كون مواقف الرئيـس ترامب وتغريداته غير المنضبطة سـوف تشجع الدول الأربع لخوض مغامرة أخرى ضد دول الجوار وعلى وجه التحديد إيران في المستقبل القريب.

هذه المسـتجدات المحورية تشـكل -إذا ما أضيفت إليها حالة عدم الاستقرار العميقة التي تـضرب المنطقـة منذ عـدة أعوام من ناحيـة، ومعضلة انتقـال القيادة في الداخـل الإيراني نظرًا

للحالة الصحية السيئة للمرشد علي خامنئي من ناحية أخرى- مصدر قلق للنظام الإيراني. فلا تزال إيران تخوض معارك طاحنة من أجل تثبيت حلفائها في كل من العراق وسوريا واليمن، وهي وإن كانت تحقق إنجازات على الأرض، إلا أن الستارة لم تنسدل عن نصر محقق وساحق لها ولأذرعها الإقليمية. فإذا أخذنا المحاولات الساعية لتشكيل تحالفات إقليمية مناوئة لها بمشاركة إسرائيل وأمريكا، يصبح تصور المعضلة الإيرانية أقرب إلى الفهم. فإيران تقع في بؤرة الاستهداف للتقارب الجاري بين الدول العربية الأربع وإسرائيل، حيث هناك ما يشبه حالة من التطابق الكبير في مصالحها، خصوصًا فيما يتعلق بضرورة التصدي لإيران وتحجيم نفوذها الإقليمي. بعبارة أخرى، في الوقت الذي تسعى فيه الدول الأربع -والسعودية على وجه التحديد- إلى التصدي للنفوذ الإيراني في المنطقة، تسعى إسرائيل إلى تحقيق عدة أهداف: أولًا، استغلال هذا النفوذ الإيراني من أجل الضغط على العرب لتقديم تنازلات تجاه التطبيع العلني معها، ولذلك تعمل تل أبيب بشكل حثيث على زيادة شيطنة إيران في المنطقة؛ وثانيًا، تشكيل حزام من الدول العربية من ناحية وبعض الدول الإقليمية الأخرى كأذربيجان لتطويق إيران، وذلك من أجل وضع حد لطموحها بالهيمنة، وهي بذلك -أي إسرائيل- تعمل على قلب المبدأ القديم في سياستها الخارجية، الذي كان معمولًا به في فترة الخمسينيات والستينيات، وقضى حينها بتشكّل طوق من الدول غير العربية -إيران وتركيا وأثيوبيا- من أجل تطويق الدول العربية المعادية لإسرائيل، وخصوصًا مصر وسوريا، وعرف بالمبدأ المحيط.

الموقف الإيراني .. الحياد الإيجابي واستنزاف الخصوم

كان على إيران للتعاطي مع هذه المستجدات، والتصدي لما قد ينتج عنها من أزمات قد تمس أمنها- اتخاذ مواقف محددة ومدروسة بعناية. بشكل عام هناك نمطان يغلبان على سلوك إيران في التعاطي مع أزمات المنطقة: أولًا، النمط التدخّلي؛ وهو النمط الذي تتبناه إيران في حال تعرض أحد حلفائها أو أذرعها الإقليميين إلى خطر مباشر قد يهدّد مصالحها الحيوية؛ ويعد تدخل إيران في سوريا والعراق في السنوات القريبة الماضية مثالًا على ذلك. وثانيًا، نمط الحياد الإيجابي، وهو النمط الذي تتبعه إيران في حال دب الخلاف والنزاع بين منافسيها المحتملين، حيث تأخذ مسافة أمان من الأزمة، وتدع خصومها ومنافسيها يستنزف بعضهم بعضًا، لتخرج هي بالأخير الرابحة. وقد تكرر اتباع إيران لهذا النمط على مدى العقود الثلاثة الماضية؛ فقد وقفت إيران على الحياد في الأزمة التي تفجرت بين العراق والكويت في مطلع تسعينيات القرن العشرين، كما أنها وقفت أيضًا على الحياد في حرب الخليج الثانية، والغزو الأمريكي للعراق 2003. ويعني الحياد الإيجابي لإيران في مثل هذه الأزمات أنها لا تتدخل بشكل مباشر مع طرف من الأطراف ضد الطرف الآخر، ولكن هذا لا يمنعها من الوقوف ضمنًا وبشكل غير مباشر مع واحد من أطراف النزاع بما يخدم مصالحها، ويعمل على تثبيط التهديدات المحتملة ضدها؛ فعلى سبيل المثال سهّلت إيران مهام قوات التحالف للإطاحة

بنظـام صـدام حسـين في 2003 من خلال تقديم الدعم اللوجسـتي لهذه القـوات بالرغم من موقفها الرسمي المحايد من الأزمة.

في الأزمـة الأخـيرة ضـد قطر، بدا السـلوك الإيراني يميل بشـكل لافـت إلى النمط الثاني، فالوقـوف عـلى الحيـاد ومراقبة المنافسـين لهـا الذيـن يُضعِف بعضهـم بعضًا يعمل عـلى تقوية موقف إيران الإسـتراتيجي، ويشـّكل متنفَّسًـا حيويًّا لاسـتمرار إيران في تغذية طموحها نحو الهيمنة الإقليمية. هذا مع العلم أن الحسـابات الإيرانية تجاه قطر من ناحية والسـعودية -التي يظهـر أنها تقود التحالـف الرباعي- من ناحية أخرى لا تقف على أرضية واحدة؛ فبينما تتسـم علاقة إيران مع قطر بالمراوحة بين التنافس في بعض السـاحات مثل سـوريا على سـبيل المثال، والتعـاون خصوصًا في مجال الطاقة، فإن علاقتها مع السـعودية تتخـذ طابع الصراع الصفري والمواجهـة غـير المباشر من خلال الـوكلاء. وهذا يعني ضمنًا أن يكون سـلوك إيـران المحايد أقـرب إلى الموقـف القطري منـه إلى الموقف السـعودي. وتعبيرًا عن هذا الموقـف، فقد أوصل نائـب وزير الخارجية الايراني للشـؤون العربية والإفريقية حسـين جابـري الأنصاري بتاريخ 18/ 6/ 2017 (رسـالة شفهية) من الرئيس الإيراني حسن روحاني إلى نظيره القطري الشيخ تميـم بن حمد آل ثـاني تضمنت تعهدًا إيرانيًّا بمواصلة تقديم المسـاعدة إلى قطر "طالما كان هناك طلـب" لذلـك[10]. كما عـاد الرئيس الإيراني روحـاني وأكد موقف بلاده المتضامـن مع قطر من خـلال الاتصال الهاتفي الذي أجراه مع الشـيخ تميم يـوم الأحد 25/ 6/ 2016 وعبر فيه عن أن "مسـاعدة اقتصاد قطر وتوسـيع العلاقات -وبخاصة في القطاع الخاص بين قطر وإيران- يمكـن أن يكون هدفًا مشـتركًا"[11]، وأضاف أن "طهران تقـف مع الأمة القطرية والحكومة... ونعتقـد أنـه إذا كان هناك صراع بـين دول المنطقة فإن الضغط أو التهديد أو العقوبات ليسـت هـي الطريقـة الصحيحة لحل الخلافـات"[12]، وبعد يومين من هذا الاتصـال، أعلن روحاني أن "حصار قطر غير مقبول"[13].

مـن جانبـه دعا عميد الدبلوماسـية الإيرانية وزيـر الخارجية جواد ظريـف جميع الأطراف المعنية إلى الانخراط في حوار من أجل حل الأزمة، وحث نظراءه في كل من الجزائر، وأوروبا، ولبنان، وعمان، وماليزيا، والعراق، وتونس، وتركيا إلى مناقشـة الأزمة الخليجية والبحث عن مخـرج سـلمي لها وفق ما أفـاد به الإعلام الإيـراني[14]. وقال جـواد في تغريدة لـه إن : "الجيران دائمـون، ولا يمكن تغيير الجغرافيـا، والإكراه لا يكون حلًّا أبدًا، والحوار لا بدّ منه، وبخاصة خلال شـهر رمضان المبارك"[15]. وفي وقت سـابق دعا المتحدث باسم وزارة الخارجية الإيرانية بهرام قاسـمي إلى إجراء "حوار واضح وصريح" بين الأطراف المتصارعة، قائلًا: إن التوترات ستهدد مصالح الجميع فى المنطقة[16]. أما مستشار وزير الخارجية الإيراني حسين شيخ الإسلام، فقـد قـال إن: "مصالحنـا تُخدَم بشـكل أفضل إذا لم تكـن هناك حـرب أو صراع أو أي توترات أخـرى في منطقتنا"، وأضـاف لامزًا أطراف الأزمـة: "إننا -أي الإيرانيـين- نحاول التصرف

بعقلانيـة؛ لأن المعارضـين في المنطقة شـباب، وغير ناضجين، وغير عقلانيـين في مقاربتهم مع قطر"[17].

انعكاسات الأزمة على مكانة إيران الإقليمية

تشيع في الأوساط الإيرانية فكرة مفادها أن نجاح الدول الأربع في حملتها ضد قطر سيشكل تهديـدًا مبـاشرًا لمصالح إيـران في المنطقة؛ ليس لأن قطر تشـكل في حدّ ذاتها قيمة إسـتراتيجية لإيران؛ وهو ما يعني أن فرض الوصاية عليها أو تطويعها سيشكل خسارة للإيرانيين؛ بل لأن نجاح هذه الحملة بتحقيق أهدافها سـوف يشـكل سـابقة في علاقات الدول الإقليمية بعضها مع بعض، بحيث يغلب منطق الحصار وقطع العلاقات على منطق الدبلوماسـية، ويعمل على تشـجيع الدول الأربع على مواصلة طريقها لتكون إيران هي الهدف اللاحق؛ لذلك تَعدّ إيران إخفاق الحملة على قطر مصلحة ملحّة لها.

دعـا وزيـر الخارجية جـواد ظريـف جميع الأطـراف المعنيـة إلى الانخـراط في حوار مـن أجل حـل الأزمة وحث نظـراءه في كل مـن الجزائر وأوروبا ولبنـان وعمان وماليزيا والعراق وتونس وتركيا إلى مناقشـة الأزمة الخليجية والبحث عن مخرج سلمي لها

ولكـن يبـدو مع هـذا أن المخاوف الإيرانيـة لم تلبث طويـلًا، فالحملة على قطر -التي بدأت بزخم كبير وكان متوقعًـا لهـا أن تطيح بالنظام القطـري- آخذة بالتراجع. فهناك العديـد من المؤشرات التي تـدل بمجموعها على أن مغامـرة الـدول الأربـع في تطويع دولة قطـر إنما تأتي بنتائج عكسية، فقد كان هناك التفاف واضح من الشعب القطـري حـول قيادتـه، ولم تؤدِّ جهود الـدول الأربع في إحـداث معارضـة داخلية حقيقية قد تـؤدي إلى إحداث تحرك شعبي أو انقلاب داخل العائلة الحاكمة- إلى أي شيء. كما أن عدم قبول المجتمع الدولي برواية الـدول الأربع حول علاقة دولة قطر بدعم الإرهاب أفرغ الهجمة من مضمونها، ونزع عنهـا الشرعية الدولية، فالاتحاد الأوروبي، وروسـيا، والصين عَـدّت الإجراءات المتخذة ضد قطر غير شرعية، ودعت إلى ضرورة رفع الحصار، وحلّ الأزمة بالطرق السلمية. أما الولايات المتحدة، وإن جاء موقفها ملتبسًا بعض الشيء في بداية الأزمة بسبب تغريدات الرئيس ترامب التـي أوحـت بأنه يميل إلى تبنـي موقف الدول الأربـع ضد قطر- إلا أنها عـادت وأوضحت موقفهـا مـن خلال زيـارة وزير الخارجيـة الأمريكي ريكس تيلرسـون إلى المنطقـة، حيث دعا صراحة إلى ضرورة رفع الحصار عن قطر، وعودة الأطراف إلى طاولة الحوار، واتخاذ خطوات إيجابية لحل الأزمة، وتوقيع مذكرة مشتركة لمكافحة تمويل الإرهاب[18].

ولذلك فإن انحسـار الأزمة، واتخاذها الطابع الإسـتاتيكي، وعدم قدرة الدول الأربع على ممارسة مزيد من الضغوط، أو الذهاب بعيدًا إلى رفع سقف المراهنات- يشير إلى الموقف المتأزم الـذي وصلـت الدول الأربـع الراعية للحصـار إليه، وهو الأمـر الذي يخـدم في نهاية المطاف

إيران، ويعزز من قدرتها على ممارسة نفوذها وتأثيرها في المنطقة. ويمكن رصد عدة انعكاسات للأزمة الخليجية على المكانة الإقليمية لإيران:

أوّل هـذه الانعاكاسـات تتمحور حول الفائدة الإسـتراتيجية التي تجنيهـا إيران من خلال حالة الخصومة المتأصلة التي تدب بين منافسيها الرئيسين في المنطقة. وبالرغم من أن الصراعات العربية- العربية لم تختف عن المشـهد السياسي طيلة الفترة التي تلت نهاية الاستعمار إلى الوقت الحالي، إلا أنها بدأت تأخذ أشـكالاً أكثر خطورة منذ اندلاع ثورات الربيع العربي التي هددت بشكل كاسح بقاء الأنظمة العربية التي حكمت طيلة هذه الفترة.

ويحـدث داخـل البيت العـربي صراع معقّد يـدور على أكثر مـن صعيد، فمـن ناحية هناك الـصراع السـياسي بـين معسـكرين بارزيـن، هما: معسـكر الثورات وتيار الإسـلام السـياسي في جهـة، ومعسـكر الثـورات المضـادة الذي يقـوده كل من السـعودية والإمـارات ومصر في الجهـة المقابلـة. ومـن ناحية أخرى هنـاك صراع ديني يدور حـول تحديد هوية التمثيل السـني بـين أولئك الذين يدعمون التوجهات السـلفية الوهابية، وأولئـك الذين يدعمون التوجهات التحديثيـة والديمقراطيـة، وهـم أتباع ما قد يُطلَق عليه الإسـلام الديمقراطـي. وبالرغم من أن تيـار السـعودية- الإمارات المحافظ -وهـو التيار الذي يتموضع ضمن معسـكر الثورات المضادة- في حالة خلاف كبير مع إيران سواء تجاه سياساتها التدخلية أم الطائفية، إلا أن ترتيب الأولويـات لديه يضع معسـكر الثورات في مقدمة اسـتهدافاته؛ على اعتبـار أن إيران وبالرغم مـن الخطر الذي تشـكله على نفوذ هذا التيار في المنطقة إلا أنها لا تشـكل تهديـدًا حقيقيًّا لأمن وبقاء أنظمته السياسية، خلافًا لمعسكر الثورات الذي يسعى في الأساس إلى قلب هذه الأنظمة من الداخل، وبذلك تكون جماعة الإخوان المسـلمين وهي العمود الفقري للإسـلام السياسي والأنظمـة التـي تقدم الدعـم والمأوى لهـا، كالنظامين القطـري والتركي- في بؤرة اسـتهداف معسـكر الثورات المضـادة، وبذلك يمكن أن نفهم لماذا كانت قطـر لا إيران هي الهدف الأول من هذا الاستهداف؟

ثانيًـا، تعمـل الأزمة ضـد قطر على تآكل قـوة مجلس التعـاون الخليجـي ومكانته، وهو أقوى كيان إقليمي متماسـك حتى الآن يمكن لـه التصدي المحتمل للنفوذ الإيراني، وذلك بعـد الحالـة المزرية التي وصلت إليها الجامعة العربية، ونكوصها عن ممارسـة هكذا دور في ظـل انتقال الزخم السـياسي العربي مـن القاهرة إلى الرياض. وبالرجـوع إلى الوراء قليلًا، فـإن فكـرة ميـلاد مجلـس التعـاون الخليجي -وهـو مظلـة أمنيـة بالدرجـة الأولى لا مظلة اقتصاديـة- كان بُعَيـد اندلاع الحـرب العراقية الإيرانية، وذلك تحديـدًا في محاولة من دول الخليـج لموازنـة قوة الجاريـن الكبيرين: (العراق وإيـران). وقد اتخذ مجلـس التعاون موقفًا واضحًـا بالوقـوف إلى جانـب العراق ضـد إيران في أثنـاء الحرب؛ في حـين لم يقبل دخول العـراق في عضويتـه أبـدًا. وبالرغـم مـن أن المجلس دعـا إلى الحوار والجلـوس إلى طاولة

المفاوضات من أجل وضع حد للحرب إلا أن الدول المنضوية تحت عباءته وخصوصًا السعودية والكويت قدمت دعمًا سخيًّا للنظام العراقي لمواصلة الحرب ضد إيران. وقد بقي المجلس محافظًا على وحدته طيلة ما يقرب من ثلاثة عقود ونيف بالرغم من بعض التقاعسات والتراجعات نظرًا إلى البيئة السياسية المتقلبة في المنطقة، هذا مع العلم أن دول المجلس لم تكن منسجة على طول الخط في جميع القضايا التي كانت تتعرض لها، إذ كانت هناك تباينات على الدوام؛ خصوصًا في القضايا المحورية، كالعلاقة مع إيران، والسياسة النفطية، فدولة عُمان وإلى حدّ ما قطر لم تكن على نفس المستوى من العداء الذي أظهره كل من السعودية والكويت لإيران؛ خصوصًا إبان الحرب العراقية-الإيرانية. وفي هذا السياق تأتي الحملة ضد قطر مؤخرًا لتكشف مستوى الصدع داخل مجلس التعاون الخليجي، فهناك ثلاث دول تصطف بشكل مباشر في ذات الاتجاه، هي: السعودية والإمارات والبحرين، في حين تنأى عُمان بنفسها عن المشهد، أما الكويت فتأخذ جانب الحياد، وتحاول أن تمارس دور الوساطة لحل النزاع بالطرق السلمية، ولكن من غير جدوى حتى الآن. وإذا كان من المبكر الحديث عن تفكك المجلس، إلا أنه وبحكم الأمر الواقع يمكن اعتباره معطلًا، إذ إن أمانته العامة التي تتخذ من الرياض مقرًّا لها لم تعقد اجتماعًا واحدًا منذ بداية الأزمة.

ولا شك أنّ أي حالة ضعف تصيب المجلس ستصب لا محالة في مصلحة إيران، وتعمل على دفع بعض الدول كقطر وعُمان إلى التقارب مع إيران على حساب السعودية التي باتت سياساتها الخارجية تأخذ طابع المغامرات غير المأمونة، وهذا يشكل انقلابًا في سياساتها المحافظة التقليدية في السابق. فالسعودية في الآونة الأخيرة سواء بسبب أوضاعها الداخلية التي تتعلق بانتقال السلطة من أبناء عبد العزيز آل سعود إلى أبناء سلمان آل سعود، أم بسبب صراعها مع إيران ومع تيار الثورات العربية، أو بسبب أوضاعها الاقتصادية المتراجعة- باتت تَظهر مرتبكة في سياساتها الخارجية، فالحرب على اليمن تحولت إلى حرب استنزاف، ولم تستطع إلى الآن إعادة الشرعية؛ بل على العكس تمامًا بات اليمن الآن أكثر من ذي قبل مهددًا بالتقسيم، والتحالف الإسلامي الذي شكلته الرياض لا يعمل بشكل منسجم وفعال، فالإمارات -رغم التحالف المعلن مع السعودية- تمارس أجندتها الخاصة في اليمن، وتسعى إلى تثبيت مساحة نفوذها في عدن، كما أن حملة المقاطعة لقطر لا يبدو أنها تؤتي ثمارها وقد وصلت إلى طريق مسدود في أحسن الأحوال، كما أن معركة النفوذ على الإقليم يبدو أنها تخسرها لمصلحة القوى الإقليمية الأخرى مثل تركيا، وإيران على وجه التحديد. فإيران تجد اليوم في معارك خصومها فيما بينهم هامشًا رحبًا للتمدد وبسط النفوذ، فمن خلال ضعف خصومها تستمد إيران قوتها، وتنفذ في المساحات الرخوة لتثبيت سياسة الأمر الواقع في دول الجوار بما يخدم مصالحها على المدى البعيد.

الخلاصة

كانـت إيران منسـجمة مع نفسـها عندما اختـارت أن تقف على الحياد الإيجـابي من الأزمة التـي تعصـف بدول الخليج العربي، فبالرغم من أن علاقتها مع قطر لم تتسـم يومًا بالعداء، إلا أن حالة القطيعة بين الأخيرة والسعودية التي تعدّ بحق خصمها اللدود في المنطقة من شأنها أن تخدم المصالح الإيرانية؛ وذلك من خلال الهوامش الواسـعة التي توفّرها هكذا أزمات لإيران لتعزيـز مكانتهـا الإقليمية. إذن شـكلت الأزمة متنفسًـا إسـراتيجيًّا لإيران؛ من خلال تشـتيت مـا كان يعتقـد أنه تحالف إقليمـي مكون من الـدول العربية، خصوصًا السـعودية والإمارات ومـصر مـن جانب وإسرئيل مـن جانب آخر؛ يهـدف إلى تطويقها وفرض الحصـار عليها. مع ذلك يبقى مسـتوى التهديد مرتفعًا، فمع جنوح السـعودية إلى ممارسة سياسة خارجية تتصف بالتدخليـة غير المحسـوبة يومًا بعد يوم، وفي ظل وجود إدارة أمريكية شـديدة العداء لإيران- تبقـى احتماليـة التصعيد ضدها واردة. هذا وتدل الأزمـة ضد قطر على حجم الشرخ الكبير في العلاقات العربية- العربية، وهو الأمر التي سوف تعمل إيران على استثماره لمصالحها من خلال وقوفهـا على الحياد مـن جانب، وتسريع مخططاتها على الأرض، خصوصًـا في الدول المنخرطة فيها بشكل مباشر، كسوريا والعراق من جانب آخر. والمحصلة الأخيرة هي أن الدول العربية الأربع الراعية للحصار تسـهم في تمكين الهيمنة الإيرانية في المنطقة بسـبب سياسـاتها الرعناء، بدلًا من وضع حدّ لها، وتكون بذلك كمن يطلق النار على قدميه.

الهوامش والمصادر :

1. Saudi. UAE. Bahrain and Egypt reduce Qatar demands to six 'principles'"." (2017/7/GULF BUSSINESS. July 19. 2017. (access into internet on 25).
2. President Trump's Speech to the Arab Islamic American Summit". The" White House. Office of the Press Secretary. May 21. 2017. (access into internet on 22/7/2017).
3. Cohen. Gili. "With Eye on Iran. U.S. Defense Secretary Mattis Arrives in (2017/7/Israel". HAARETZ. April 20. 2017. (access into internet on 22).
4. Wallace. Chris. "Lt. Gen. H.R. McMaster on foreign policy; Sen. Schumer on President Trump's first 100 days". FOX NEWS SHOWS. April 30. 2017. (access into internet on 22/7/2017).
5. Sevastopulo. Demetri. "Trump imposes new Iran sanctions". FINANCIAL (2017/7/TIMES. July 18. 2017. (access into internet on 22).
6. "محمد بن سلمان: لن نُلدَغ من إيران مرتين... وسنعمل لتكون المعركة عندها لا في السعودية". CNN العربية. الأربعاء 3. مايو/ أيار 2017. (الدخول إلى الإنترنت 2017/7/24).
7. Iran leaders accuse US. Saudis of supporting Tehran attacks". The Washington" (2017/7/Post. June 9. 2017. (access into internet on 24).
8. Lynch. Marc. "How Trump's alignment with Saudi Arabia and the UAE is inflaming the Middle East". Washington Post. June 7. 2017. (access into

.(2017/7/internet on 23
9. Lynch. Marc. “What kind of deal is Trump making with Saudi Arabia?”. .(2017/7/Washington Post. May 22. 2017. (access into internet on 23
10. Iran’s President Sends Message to Qatari Emir”. Tasnim News Egency. June.” .(2017/7/18. 2017. (access into internet on 24
11. Karami. Arash. “With Qatar isolated by GCC. Iran steps in”. Al-Monitor. June .(2017/7/26. 2017. (access into internet on 24
12. Iran's Rouhani backs Qatar. rejects 'siege'”. Reuters. JUNE 26. 2017. (access” .(2017/7/into internet on 24
13. Ibid
14. After isolation. Qatar says welcomes mediation”. PRESSTV. June 6. 2017.” .(2017/7/(access into internet on 24
15. Regencia.Ted. “Qatar-Gulf rift: The Iran factor”. Aljazeera. June 6. 2017. .(2017/7/(access into internet on 24
16. Ibid
17. Erdbrink. Thomas. “For Iran. Qatar Crisis Is a Welcome Distraction”. The .(2017/7/New York Times. July 4. 2017. (access into internet on 24
18. Rex Tillerson applauds Qatar plan but Gulf rivals refuse to lift sanctions”.” .(2017/7/The Guardian. July 11. 2017. (access into internet on 24